كلية : الآداب

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.م.د. نهاد فخري محمود

اسم المادة بالغة العربية : النقد القديم

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Old Criticism

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: طبقات فحول الشعراء المنهج والمعايير النقدية

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية : Classification of distinguished poets, Critical method and criteria

مقرر الفصل الأول

طبقات فحول الشعراء

المنهج والمعايير النقدية

أولاً : ابن سلام ونظرية الطبقات

١ـ مفهوم الطبقة.

قبل كل شيء لابد لنا من التوقف قليلاً عند لفظة (طبقة) لبيان مدلولها اللغوي وتطور هذا المدلول.

جاء في اللسان (وطبقُ كلِّ شيء ما ساواه، وتطابق الشيئان: تساويا، والمطابقة: الموافقة).

هذه المساواة متحققة داخل الطبقة الواحدة التي تتألف منها؛ لأنَّ هذه العناصر أو الأشياء الداخلة في الطبقة تشترك في ميزات تجعلها في وضع متشابه.

إنَّ وجود طبقة يوحي بوجود طبقات أخرى متفاوتة معها. قال الزمخشري: (والناس طبقات منازل ودرجات بعضها أرفع من بعض).

وردت لفظة "الطبقة " في القران الكريم كقوله تعالى :(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا) وقوله تعالى: (وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ، لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ) بمعنى أن تجعل الشيء فوق آخر بقدره .

أما في الحديث النبوي الشريف فقد وردت بمعنى الجيل في قوله (صلى الله عليه وسلم): " أمتي على خمس طبقات: كلُّ طبقة أربعون عامًا، فأما طبقتي وطبقة أصحابي فأهل علم وبيان، وأما الطبقة الثانية ما بين الأربعين إلى الثمانين فأهل بر وتقوى".

وجاءت بمعنى الحال في قوله (صلى الله عليه وسلم): " ألا إنَّ بني آدم خلقوا على طبقات شتى، منهم من يولد مؤمنًا، ويحيا مؤمنًا، ويموت مؤمنًا، ومنهم من يولد كافرًا، ويحيا كافرًا، ويموت كافرًا ومنهم من يولد مؤمنًا، ويحيا مؤمنًا، ويموت كافرًا، ومنهم من يولد كافرًا، ويحيا كافرًا، ويموت مؤمنًا".

وجاءت بمعنى الوعاء، وآلة الغناء، ورفعة الكتاب. وجاءت بمعنى المنهج أو المذهب، فقال أبو الحسن في كتابه: طبقات الحنابلة:" انتهى علم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى ستة نفر من الصحابة (رضي الله عنهم): عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب...، فهؤلاء طبقات الفقهاء، أما الرواة فستة نفر...، وأما طبقات أصحاب الأخبار والقصص، فستة نفر، وأما طبقات خزان الكتب، فستة نفر، وأما طبقات الحفاظ، فستة نفر..."

٢ـ فكرة الطَّبقة

تأثَّر الأدباء والنقاد تأثرًا سريعًا بطريقة علماء الحديث ومنهجهم الذين اعتمدوا على مقاييس الجرح والتعديل، وليس مستغربًا أن يعتمد الأدباء هذا المنهج، إذ إنَّ أكثرهم كانوا من رواة الحديث، ومنهم عروة بن أُذينة الذي قال فيه ابن سلام: (وكان شريفًا ثبتًا يُحمل عنه الحديث)، وكان ابن سلام نفسه راوية للأدب والحديث، وهذا جعله متأثرًا برجال الحديث، فاقتبس منهم هذه الطريقة وأضاف إليها من عنده ما جعلها بهذا الشكل.

إنَّ أقدم ما وصل إلينا من كتب الطبقات، كتاب (الطبقات الكبرى) لابن سعد (ت ٢٣٠هـ) وكتاب طبقات ابن خياط (ت ٢٤٠هـ)، إلا أنَّ هناك تأليف في طبقات المحدثين أقدم من طبقات ابن سعد غير أنَّها لم تصلنا كطبقات الواقدي.

لو تتبعنا المقاييس التي اعتمدها ابن سعد نجد الآتي:

١-الزمان، إذ خصص الجزأين الأولين من كتابه لسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم ترجم بعد ذلك لصحابته وللتابعين، أما فيما يتعلق بالصحابة، إذا ابتدأ بالمهاجرين والبدريين ثم بالأنصار البدريين، ثم من دخل الإسلام قديمًا، ولكنه لم يشهد بدراً.

٢-المكان، إذ ترجم للصحابة على وفق أمصارهم التي قاموا فيها، فابتدأ بمن في المدينة، فمكة، فالطائف، فاليمن، فاليمامة.

ومما تجدر الاشارة إليه أنَّ هناك من ألفوا في الطبقات منهم: الهيثم بن عدي، فله كتاب (طبقات الفقهاء والمحدِّثين) وله أيضًا كتاب (طبقات من روى عن النبي "صلى الله عليه وسلم" وأصحابه)، وكذلك واصل بن عطاء له كتاب (طبقات أهل العلم والجهل).

قامت فكرة التأليف في طبقات الشعراء عند الأدباء والنقاد على تقليد علماء الدين في طبقاتهم، فانتقلت هذه الفكرة من ميدان علم الحديث إلى الميدان الأدبي.

وآية ذلك ما فعله اللغويون عندما قارنوا بين شعراء الطبقتين الجاهلية والاسلام، فربط أبو عمرو بن العلاء بين جرير والأعشى، وبين الفرزدق وزهير، وبين النابغة والأخطل، إذ قالوا: (وكان الحذَّاق يقولون: الفحول في الجاهلية ثلاثة، وفي الإسلام ثلاثة متشابهون، زهير والفرزدق، والنابغة والأخطل، والأعشى وجرير".

لقد وصل اللغويون عن طريق ملاحظاتهم ومقارنتهم الى تفوق الشعراء الجاهليين الثلاثة، وبذلك قد حددوا مرة أخرى طبقة مميَّزة من الشعراء الجاهليين، بعد أن اهتدوا الى

الطبقة الأولى من الاسلاميين، لذا يمكننا القول إنَّ اللغويين هم الذين طوَّروا فكرة الطبقات، واقتفوا أثر المحدِّثين في درجة الأخذ فعدّوا (أملى علينا) أرفع من (سمعتُ) و(سمعتُ) أعلى من (حدَّثني) و(حدَّثني) خيراً من (أخبرني) تمامًا كما فعل المحدِّثون.

(٣) منهج ابن سلام

قال الأستاذ طه أحمد إبراهيم (رحمه الله) عنه أنَّه: (خلاصة ما قيل إلى عهده من أشعار الجاهلية والاسلام) ورأى الدكتور إحسان عباس (رحمه الله) أنَّه: إعادة صياغة للنظريات التي تلقاها ابن سلام عن أساتذته وتوسيعًا لبعض أفكار الأصمعي مثل فكرة (الفحولة)، ومهما يكن من شيء، فكتاب ابن سلَّام أول مؤلف نقدي موجود يستند إلى نظرية (الطبقات)، إذ اعتمد ابن سلام منهجية واضحة جعلت بعض مؤرخي النقد العربي يرون فيه أول ناقد متخصص يصدر عن منهج مستقيم وروح علمية.

والملاحظ أنَّ ابن سلام قد تأثَّر بأبي عُبيدة الذي ألف كتابًا في الطبقات أشارت إليه مصادر الأدب. إذ اتفق الاثنان على عدم الاعتراف بطبقة المخضرمين، اذ وضعا الحطيئة في طبقات الشعراء الجاهليين، وحسان بن ثابت في طبقة شعراء القرى العربية، والخنساء في طبقة أصحاب المراثي، وكعب بن جعيل، وعمرو بن أحمر الباهلي، وسحيم بن وثيل وهم مخضرمون في الطبقة الثالثة من الاسلاميين...الخ.

والملاحظ أيضا في طبقات أبي عبيدة – كما ترويها المصادر القديمة – أنَّه وضع في كلٍّ من الطبقة الأولى والثانية من الجاهلية أربعة شعراء، وهذا ما فعله ابن سلَّام مع اختلاف بسيط في ترتيب الشعراء، إلا أنَّ أبا عبيدة وضع اثني عشر شاعرًا في الطبقة الثالثة.

منهجه في توزيع الشعراء

وزع ابن سلام أربعين شاعرًا جاهليًّا على عشر طبقات في كل طبقة أربعة شعراء، وتلا ذلك مجموعة من الشعراء يبلغ تعدادهم أربعة وثلاثين شاعرًا وزَّعهم على طبقتين، واحدة سمَّاها

(أصحاب المراثي)، وعددهم أربعة شعراء، وأخرى سمَّاها طبقة (شعراء القرى العربية) خمسة من شعراء المدينة، وتسعة من شعراء مكة وخمسة من الطائف، وثلاثة من شعراء البحرين، وثمانية من شعراء اليهود.

أما الاسلاميون فقد اختار منهم أربعين شاعرًا، وزعهم على عشر طبقات في كلِّ طبقة أربعة شعراء، وقد خصص الطبقة التاسعة بالرجاز، وبذلك يكون مجموع من ترجم لهم مائة وأربعة عشر شاعرًا.

المقاييس النقدية

استند ابن سلام في توزيع الشعراء على طبقات على مجموعة من المعايير والمقاييس النقدية والتي يمكن إجمالها بالآتي:

١-الزمان

فالمتأمل في طبقات ابن سلام يجد الزمن حاضرًا في توزيعه الشعراء على طبقات، إذ بدأ بشعراء ما قبل الاسلام بمعزل عن الاسلاميين؛ لأنَّهم يشكِّلون حقبة أدبية متميزة في اسلوب حياتها ولغتها وشعرها. ويدخل ضمن هذا المعيار (الجودة) وإلا ما الذي يجعل امرأ القيس الاول في طبقته، أو يضع مجموعة في طبقته، وأخرى في طبقة ثانية.

٢-الكم الشعري

يعد الكم الشعري معيارًا اعتمده ابن سلام في طبقاته، فالملاحظ أنَّه وضع حسان بن ثابت الأول في طبقته على شعراء المدينة الخمسة؛ لأنَّه كثير الشعر جيده، ومما أخَّر شعراء الطبقة التاسعة الجاهلية؛ لأنَّ "في أشعارهم قلَّة فذلك الذي أخرهم " وجعل الأسود بن يعفر الثالث في الطبقة الجاهلية الخامسة؛ لأنَّ " له واحدة طويلة رائعةً لاحقةً بأول الشعر، لو كان شفعها بمثلها قدَّمناه على أهل مرتبته".

٣-الإبداع والجدَّة والسبق:

لذلك أجمع النقاد على أولوية امرئ القيس؛ لأنَّه أول من استوقف الصحب وأبكى الدِّيار، وقيَّد الأوابد، وأول من شبَّه النساء بالظباء، والبيض والخيل والعِقبان، ومن أسباب تفضيل زهير؛ لأنَّه أجمع الشعراء لكثير من المعاني في قليل من اللفظ وأشدهم شاعرية.

٤-تنوع الأغراض

يعد التنوّع في الأغراض معيارا عنى به ابن سلام في توزيعه الشعراء على طبقات، فقد رأى الدارسون أنَّ الأعشى "أذهبهم في فنون الشعر" إذ قال عنه ابن سلام: " لم يكن له مع ذلك بيت نادر على أفواه الناس كأبيات أصحابه إلا أنَّ تعدد أغراضه وقدرته على النَّظم في الأغراض جميعها هو مكَّنه من أن يحتلَّ مكانته ضمن هذه الطبقة".

وقال عنه أبو حاتم؛ لأنَّه " قد قال في كلِّ عروض وركب كلَّ قافية "، وقال أبو عبيدة: " من قدَّم الأعشى يحتج بكثرة طواله الجياد، وتصرفه في المديح والهجاء وسائر فنون الشعر وليس ذلك لغيره".

وكان جرير: " يحسن ضروبًا من الشعر لا يحسنها الفرزدق "، وكان لتفوق الشاعر في غرض واحد ما يدعو الى تفضيله على غيره، وعلى هذا كان جرير يغلب في الفخر، وجميل مقدَّمًا على كُثيِّر في النسيب، والأخطل يجيد نعت الملوك ويصيب صفة الخمر.

ورأى بعض الدارسين أنَّ تقديم الكثرة على الجودة، وتنوع الأغراض على الاقتصار على غرض واحد، يعدُّ دليلًا على اضطراب المقاييس. وقد يكون ذلك صحيحًا إذا أدركنا أنَّ ابن سلَّام اعتمد الغرض الواحد معيارًا لوضع مجموعة من الشعراء في طبقة مستقلة وهم: أصحاب المراثي، و"الرجاز " وأنَّه نظر في شعر جميل وكُثير وهما من الغزليين؛ لكنَّه أهمل عمر بن أبي ربيعة لكونه شاعر غزل حسي، اما صاحباه فهما من شعراء الغزل العذري .

٥-**المكان:** قسَّم ابن سلام الشعراء إلى شعراء وَبَر (بدو) وشعراء مَدَر (حضر) وجعل شعراء البادية في إحدى عشرة طبقة، خصص الطبقة الحادية عشرة منها لأصحاب المراثي، ثم نظر في شعراء الحضر فوجدهم يتركزون في خمس قرى حصرها ابن سلام بقوله: (وهي خمس: المدينة، ومكة، والطائف، واليمامة، والبحرين).

٦-**الموضوع الشعري** : تنبَّه ابن سلَّام إلى مسألة الغرض الشعري، لذلك جعل أصحاب المراثي في طبقة واحدة. قال: (وصيَّرنا أصحاب المراثي طبقة)، وهذا لا يعني أنَّ هؤلاء الشعراء قد اقتصروا على موضوع الرثاء، وإنما نظموا في معظم الموضوعات، ولكن الذي غلب عليهم شعر الرثاء. وقد بلغ تقدير الاصمعي لقصائد الرثاء أن أدرج كعب بن سعد الغنوي في طبقة الفحول لمرثيته الرائعة .

٧-**الدين:** يبرز الدين بوصفه مقياسًا نقديًا عند ابن سلام، لذلك خصص طبقة للشعراء اليهود الذين تكوَّن عددهم ثمانية شعراء من مشهوري شعرائهم.